

في ذكر

أهل الجرائد والأخبار

لعلك تقول بعد ذلك إن أهل الجرائد والأخبار، يستحقون أن يصلحوا مفسد البلدان والديار، فأقول، رحمك الله، إنه خطأ في الأفكار. أتبرأ من هؤلاء أمراض النفوس، ووساوس القسوس؟ نعم، لا شك أن هذه الصناعات تفيد قومنا لو رعوه حق المراعاة، وتكون كهادٍ إلى مجاهل، وتقود إلى مناهل، وتكون كناصر للدينيات. وإن الجرائد مرآة تُري الغائب كالمشهود، والغابر كالموجود، وتكون الوصلة إلى بعض الخفايا، بل قد تُعين على فصل القضايا، وتُري الأمور القريبة والبعيدة كتقابل المرايا، وتهيئ كلِّ عبرة لأولي الألباب، وتخبر من طرق النجاة والتباب، وتنبئكم كل يوم كيف تتغير الأيام، وكيف تقوى الجماع وتغور منابع العظام، وكيف تخلو المرباط ويهوي الأمراء من إمرتهم، بعد ما أودعت سرَّ الغنى أسرَّتهم، وتخبر من أخبار المحاربين الغالبيين منهم والمنهزمين، والفائزين منهم والخائبيين. ولولا الأخبار لانقطعت الآثار، وجُهلَّ الدول وما علم الأبرار والأخيار، وتقطعت سلسلة تلاحق الأفكار،

وتكميل الأنظار، ولضاعت كثير من آراءٍ وتجاربِ أهل عقل ودهاء، وما بقي سبيل إلى تعرّف أهل السياسات، ومعرفة أهل العقول والاجتهادات. ولولا التاريخ لصار الناس كالأنعام، ولضيّعوا سلسلة الأيام والأعوام، وقد سلّمت ضرورته مذ سلّت السيوف من أجفانها، وُبرئ الأقلام لجولانها، ولا نقدر على موازنة الأوّلين والآخريين إلا بإمداد المؤرّخين، وهو الذي يحمل آثار بُنابة الجدد، ويشيع أذكار أرباب الجدد، وهو زينة للدين، وسنة الله في كتبه والفرقان المبين. والدين الذي لم يحصله تحت أسره، ولم يصاحبه في قصره، فليس هو إلا كبيت بُني في موضع يُخاف عليه من صدمات السيل، وربما يذهب السيل بمتاعه ويغادره كغبار سنابك الخيل، ومن فقد عصا التاريخ يمشي كأقرل، ولا تتحرك رجله من غير أن تتخاذل، فيُنهب ذلك البيت من صول الجهل وسيله، ومن تبوّأه يُتلف دُرراً جمعتها في ذيله، وربما يُنسيه الشيطان ما هو كعمود الملة، ويغادر بيته أنقى من الراحة، فيكون مآل هذا الدين أنه يُرمَى بالكساد، ويتلطّخ بأنواع الفساد. والدين الذي يُؤيّد بصحف التاريخ والجرائد وضبط الأخبار، لا تُعفى آثاره بل يؤتي كعذيقٍ أُكله كلّ حين من أنواع الثمار، ويُخرج كل وقت من معادن الصدق سبائك الفضة والنُّضار، وأخباره تُسكن القلوب

عند مساورة الهموم والكرب، وتقصّ قصص المصابين على القلب المكتئب، وتشدّد الهمم للاقتحام، في الأمور العظام، وتشجّع القلوب المزعودة بنموذج الفتیان الكرام، فإن نموذج الفتیان والشجعان، يقوّي القلوب ويزيد جرأة الجنان. فوجب شكر الذين يعثرون على سوانح زمنٍ مضى أو على سوانح أهل الزمان، ويُخبرون عن ضعف الإسلام وقوّة أهل الصلبان. وكم من جهالة مسّت قومنا من قلة التوجّه إلى التواريخ وأخبار الأزمنة والديار، وعرض عليهم النصارى بعض القصص محرّفين مبدّلين كما هو عادة الأشرار، وأهلكوهم وبلّغوا أمرهم إلى البوار والتبار، وطمعوا في إيمانهم، بل جذبوا فوجاً منهم إلى صلبانهم، وهذا أمر يزيد بلبال العاقلين، ويهيّج الأسف على عمل المفسدين.

ثم مع هذه الفضائل، مال أكثر أهل الجرائد في زمننا إلى الرذائل، وجمعوا في أنفسهم عيوباً سفكت جميع ما هو من حسن الشمائل. ما بقي فيهم ديانة، ولا صدق وأمانة. يسيل من أفلامهم سيل الأكاذيب، ويسفكون دم الحق عند الترغيب والترهيب. يحمّدون لأغراض، ويسبّون لأغراض، وجعلوا أهواءهم قبلتهم في كل توجّه وإعراض، وازدراء وإغماض. يتقاعسون من مبارز ويصلون على أحراض. يكذبون كثيراً وقلّما يصدقون، وفي كل واد يهيّمون.

ليس فيهم من غير خلابة العارضة، والهذر عند المعارضة. لا يقدرّون على عذوبة الإيراد، من غير كذب وهزل وترك الاقتصاد. ولا يمسّون نفائس الكلمات، إلا بمزج الأباطيل والجهلات. ييغون نزهة سوادهم بالهزليات، ويستميلونهم بالمضحكات والمبكيات. ويريدون اختلاب القلوب، ولو كان داعياً إلى الذنوب. ويقولون كل ما يقولون رياءً أو استمالةً للأعوان، لينهلّ ندى أهل الثراء والثروة عليهم وليرجعوا بالهليل والهيلمّان، وليتسناوا قيمتهم، ويستغزروا ديمتهم، ولذلك يرقبون ناديتهم وندهم، وإن خيّبوا فيلعنون مّغدهم. وكثير منهم يعيشون كالدهرين والطبيعيين، وينظرون الدين كالمستنكفين، بل أعينهم في غطاء عند رؤية جمال الملة، وقلوبهم في عيافة عند هذه الجلوة. لا يرون الكذب سبّةً، ويجعلون لبنةً قُبّةً، ولن يُتركوا سُدىً، وإنّ مع اليوم غداً. وأرى أن أبخرة الكبر سدّت أنفاسهم، وهدمت أساسهم، وترى أكثرهم كصدف بلا دُرّ، وكسنبلة من غير بُرّ. يقومون لتحقير الشرفاء، لأدنى مخالفة في الآراء، وتجذ فيهم من اتخذ سيرته الجفاء، وإلى من أحسن إليه أساء، وإذا رأى في مصيبة الجار، فأذى وجفا وجاراً، وما رحم وما أجار.

فكيف ينصر الدين قوم رضوا بهذه الخصائل، وكيف يُتوقّع

فيهم خير بتلك الرذائل؟ إلا الذين صلحوا ومالوا إلى الصالحات،
فِيرْجى أن يأتي عليهم يوم يجعلهم مِنْ حَفْدَةِ الدين، ومن الناصرين
بالصدق والثبات.